

الحركة المهدية والسنوسية

بقلم

الدكتور يوسف فضل حسن

الحركة المهدية والسنوسية

بقلم

الدكتور يوسف فضل حسن

تمهيد :

شهدت القارة الإفريقية خلال القرن التاسع عشر ظهور عدد من حركات الإصلاح الإسلامية ذات التوجهات العقدية السلفية . وقد نحا بعضها منحى إصلاحياً تربوياً وانتهج بعضها الآخر نهجاً جهادياً . وقد تأثرت تلك الحركات بدرجات متفاوتة بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩١ م) ، ويهمننا من تلك الحركات الإسلامية الإفريقية الحركة السنوسية التي أسسها السيد « محمد بن علي السنوسي » (١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ / ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م) في ليبيا ، والحركة المهدية التي دعا لها الإمام « محمد بن عبد الله المهدي » (١٢٦٠ - ١٣٠٣ هـ / ١٨٤٥ - ١٨٨٥ م) في السودان وادي النيل .

كانت ليبيا والسودان آنذاك تقعان تحت سيطرة الخلافة العثمانية التي امتد نفوذها فشمل أجزاء كبيرة من العالم العربي ، وكان ذلك بين أوائل القرن السادس عشر الميلادي وحتى مطلع القرن العشرين . كان السلطان العثماني يومئذ هو خليفة المسلمين وحامي ديارهم ، لكن الضعف بدأ يدب في تلك الدولة القوية منذ أواخر القرن السابع عشر ولم تعد تقوى على مقاومة الطامعين فيها من الداخل أو الخارج ، ففي الداخل استقل عدد من الولايات استقلالاً فعلياً عن الحكومة المركزية ، ومن الخارج ازداد تحرش الطامعين فيها من الأوروبيين الذين تمكنت أساطيلهم من تطويق العالم الإسلامي من الجنوب ، والسيطرة على التجارة الشرقية ، مصدر رخائه . ولم يقف التحرش الأوروبي على أطراف الدولة بل تدخل الأوروبيون في كثير من شؤونها الداخلية عن طريق الامتيازات التي منحت للرعايا الأوروبيين . ثم كانت محاولات التحديث المتمثلة في التنظيمات ، وما تابعتها من أساليب الغزو الفكري والثقافي والاقتصادي ، والتي أضعفت القيم التقليدية ، فوهنت بالتالي العقيدة وشاع الفساد والظلم الاجتماعي ، وبازدياد التدخل الأوروبي وما حاق بالعالم الإسلامي من أوجه الضعف والتردي ، فقدت كثير من البلاد العربية سيادتها .

أمام هذا الضعف العام ، الذي غلب على الدولة العثمانية وما تبعه من عجز في الدفاع عن ديار الإسلام ، سعى المصلحون ، وكان نداؤهم بالعودة إلى جذور العقيدة الإسلامية وذلك بالرجوع إلى القرآن والسنة ، ولعل دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب هي البادرة الأولى في سلسلة محاولات الإصلاح وإحياء الدين ، والتي انتشرت في العالم الإسلامي مؤخراً .

ولقد كان المصلحون يسعون لتنقية الدين من الشوائب وبعث العقيدة الإسلامية وتجديدها منذ أمد بعيد . ولعل فكرة الإصلاح هذه قد رُبطت بما يروى من حديث عن النبي ﷺ : (إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل قرن من يجدد لها دينها) . وكانت فكرة المهدي أو المجدد إحدى مظاهر محاولات العودة إلى العقيدة في نقائها الأول .

ومن الجدير بالذكر أن من أشهر محاولات التجديد حركة الإمام « تقي الدين بن تيمية » (٦٦١ - ٧٢٦ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) ومن بعده حركة تلميذه ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ / ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) . والشيخان من أتباع مذهب « الإمام أحمد بن حنبل » .

وقد ناديا بالعودة إلى الأخذ بتعاليم الإسلام من منابعه الأولى وتنقيته مما علق به من البدع والضلالات ، كما دعيا للاجتهاد في الفروع . وكان لتعاليمهما أثر عظيم في فكر المجدد « محمد بن عبد الوهاب » الذي ازدهرت دعوته في نجد في القرن الثامن عشر الميلادي .

كان استشرء الفساد والبدع من أهم ما دفع « محمد بن عبد الوهاب » إلى القيام بدعوته السلفية المرتكزة على التوحيد أو وحدانية الربوبية المؤسسة على القرآن والسنة ، وقد تأثرت بأساتذته المتمسكين بأصول الدين الحريصين على ألا يحدوا عنها شيئاً ، مثل الإمام « أحمد ابن حنبل » و « ابن تيمية » و « ابن قيم الجوزية » .

وقد نادى محمد بن عبد الوهاب — ضمن ما نادى به — بمحاربة البدع مثل زيارة القبور وتقديم النذور والاستعانة بغير الله كالأولياء . كما دعا لمحاربة رجال الطرق الصوفية لما أحدثوه من بدع يرى الموحدون أن بها شركاً كتقديس الأولياء والاعتقاد في مقدرتهم على الإتيان بالخوارق والمعجزات .

كما دعا إلى الاجتهاد في الفروع والقيام بواجب الجهاد خاصة في البلاد التي انتشرت فيها البدع .

هذا ولقد كتب لدعوة « محمد بن عبد الوهاب » النصر في الجزيرة العربية بفضل تحالفها مع أمراء آل سعود الذين أعطوها الدعم السياسي .

ولعل من أهم وسائل انتشار دعوة الموحدين هو بث تعاليمها بين الحجيج الذين كانوا يفدون لمكة المكرمة والمدينة المنورة من كل فج عميق . وقد اعتنقها بعضهم وتأثروا بها وغدوا

يدعون لها في بلادهم المختلفة . ومن هذا المنطلق نرجح أنها قد أثرت في معظم حركات الإصلاح التي اجتاحت العالم في القرن التاسع عشر .

ويبدو أن حركة الإصلاح التي انتشرت في أجزاء من العالم الإسلامي أدت إلى زيادة النشاط الصوفي في شمال أفريقيا وشرقها وغربها . فقد ازداد نفوذ الطريقة القادرية واتسعت دائرة نشاطها ، كما شقت الطريقة السمانية طريقها من المدينة المنورة إلى سلطنة الفونج في السودان وادي النيل . ومن شمال أفريقيا خرجت الطريقة التيجانية إلى غرب أفريقيا حيث اتخذت نمطاً جهادياً في نهجها الإصلاحي .

وكان لتعاليم الشيخ « أحمد بن عبد الله بن إدريس الفاسي » ، الذي اتخذ من مكة المكرمة ثم عسير مركزاً لدعوته ، أثر عظيم في عدد من المتصوفة . إذ كان الشيخ أحمد زاهداً في الدنيا ، متبعاً للقرآن والسنة ، مهتماً بالفكر ونشر الإسلام ، كما كان رجلاً صوفياً فقيهاً . وهو إلى ذلك كان مؤمناً بالاجتهاد . وقد أرسل وفوداً ممن تشرّبوا بتعاليمه إلى شرق أفريقيا لينشروها هناك . ومن هؤلاء السيد « محمد عثمان الميرغني » مؤسس الطريقة الختمية والسيد « محمد المجذوب » مجدد الطريقة المجذوبية ، وكلاهما في السودان . كما أسهم أحفاده في نشر الطريقة الإدريسية (المعروفة بالأحمدية) في « دنقلا » . بالإضافة إلى ذلك فقد أسس تلميذه « إبراهيم الرشيد » و « محمد بن صالح » الطريقة الصالحية في الصومال .

وممن تأثروا بالشيخ « أحمد بن إدريس » تأثراً عظيماً الشيخ « محمد علي السنوسي » الذي قابله في مكة المكرمة وخرج معه إلى « صيبا » بعسير ورافقه حتى وفاته . ومن ثم عاد إلى مكة المكرمة حيث أنشأ زاويته الأولى في جبل أبي قبيس عام ١٨٣٧ م .

ومثلما تأثرت الحركات الإصلاحية الإسلامية في أفريقيا بدعوة التوحيد التي أطلقها الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ، فقد تفاعلت تلك الحركات أيضاً بالإرث الصوفي ، ولاسيما في المجال التربوي والبنية الداخلية . من هذه الحركات الثورة المهدية في السودان والحركة السنوسية في ليبيا .

الحركة السنوسية :

(أ) النشأة :

ولد مؤسس هذه الحركة محمد بن علي المشهور بالسنوسي الكبير في الواسطة إحدى أعمال « مستغانم »^(١) بالجزائر في ١٢ ربيع الأول ١٢٠٤ هـ (٢٢ / ١٢ / ١٧٨٧ م) ، ويتصل نسبه بالحسن بن علي . وقد ترعرع في أسرة ذات علم ودين . وفي جامع القرويين بفاس أقبل على العلم ودرس على كبار العلماء هناك ، منهم السيد الدرفاوي ، وهو من شيوخ الطريقة

الشاذلية . وكان مشهوراً بسعة العلم وقوة العارضة والحماس لتبصير الناس بأمور الدين ، وقد نهل « محمد بن علي السنوسي » من تعاليم الصوفية كما وقف على تعاليم التيجانية . وكان كثير التردد على الزوايا .

ثم قام بالتجول في الجزء الجنوبي من الجزائر واعظاً للناس وباسطاً أمامهم تعاليم الإسلام الصحيحة . وبعدها سار إلى طرابلس وبنى غازي ، ومنها اتجه نحو الأزهر الشريف فحاور علماء وكاشفهم برأيه في الإصلاح الديني الذي يدعو إليه . على أن آراءه تلك ونزعه الاجتهادية هذه ، بالإضافة إلى استقلاله الفكري الواضح سببت له بعض المضايقات من العلماء مما اضطره إلى أن يتجه صوب الكعبة الشريفة فأقام بمكة المكرمة .

هذا ولقد تهيأت له — بإقامته في مكة عدة أعوام — فرصة التعرف على أحوال المسلمين من الحجيج ، كما أتاح له فرصة الأخذ عن أكابر العلماء ومنهم تلاميذ الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » ، وكذلك الشيخ « أحمد بن إدريس » . وكان لتعاليم هذين الشيخين « محمد ابن عبد الوهاب » و « أحمد بن إدريس » أثر عظيم في توجه السنوسي الفكري . ذلك أنه جمع في دعوته للإصلاح بين التوحيد والتصوف ، ومزج بينهما مزجاً طيباً . ولقد ساعده في هذه المهمة ميله الفطري للإصلاح وتوجهه بالإفصاح عن رغبته في القيام بأمر الدين وإحياء السنة على نمط خاص .

لقد كان إنشاؤه لزواية جبل أبي قبيس بالقرب من مكة في سنة ١٨٣٧م أول إعلان بقيام الطريقة الصوفية . وأتبع ذلك بإنشاء عدد من الزوايا في مدن الحجاز الأخرى إبان زيارته الثانية للحجاز .

وبرغم النجاح الذي لاقته دعوة السنوسي في مكة المكرمة إلا أنه لم يلبث أن غادر الحجاز في صحبة جماعة كبيرة من مريديه قاصداً الجزائر . ويبدو أن السنوسي قرر أن يركز جهوده الإصلاحية في وطنه بشمال إفريقيا التي أحس بحاجة للإصلاح .. ولكن احتلال فرنسا للجزائر قبل زمن وجيز من تحركه إليها جعله يصرف النظر عن تلك الجهة ويركز جهده في المنطقة بين طرابلس الغرب وبرقة .

هناك قام بإنشاء الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر ، وتعرف بأم الزوايا ، في عام ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م ومنها انطلق السنوسي في تنفيذ برنامجه الإصلاحي الذي أعد نفسه له منذ أمد طويل . واختياره للبيبا منطقاً لدعوته يدل على فكر ثاقب ونظر صائب ، لأسباب يمكن إجمالها فيما يلي :

— لم تكن سلطة الدولة العثمانية في ليبيا قد تجاوزت المنطقة الساحلية كثيراً ، كما أن برقة كانت نقطة التقاء هام للقوافل يسهل منها الاتصال بالأتباع في المناطق الصحراوية وما وراءها من أواسط بلاد السودان . وفي الوقت نفسه لم يكن من اليسير أن يسمح له حكام مصر

في الشرق أو الفرنسيون في الغرب بنشر دعوته في مناطقهم ، ولاسيما أن منطقة الجبل الأخضر التي اختارها مكاناً للانطلاق بدعوته كانت تمتاز بخصوبة التربة وصلاحياتها للزراعة مما يجعل منها مركزاً خيراً لإعداد الدعاة لإصلاح حال الناس لدينامهم وآخرتهم .

— ولما رأى قلق الدولة العثمانية مما حققته الدعوة السنوسية من إصلاح وانتشار بين المواطنين أثر السنوسي الكبير أن ينتقل إلى موطن أكثر أمناً ويكون بعيداً عن سلطة الدولة ، فانتقل إلى واحة الجغبوب في عام ١٢٧٢هـ / ١٨٥٦م وأقام فيها زاوية صارت من أكبر المراكز الدينية في المنطقة إذ كان بها نحو من ثلاثمائة طالب يعدون لتحمل أعباء الدعوة ونشر الإسلام . هذا وقد أعان موقع « الجغبوب » الوسطي — بين برقة وطرابلس ، وأواسط بلاد السودان — أولئك الدعاة كثيراً لنشر الدعوة وذيوعها .

— ولم يقف جهدهم عند ذلك فحسب بل تعداه إلى الإسهام في نشر ألوية السلم بين قبائل برقة والتي كانت تميل إلى الشجار وتحترف النهب ، وقد نجحوا في نشر الإسلام في « وادي » متبعين في ذلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة . ومن شواهد ذلك أن الشيخ كان قد اشترى قافلة رقيق كاملة ثم أعتقهم لوجه الله وفقههم في الدين . فلما تشبعوا بروح الإسلام بعثهم دعاة بين ذويهم .

وخلف السنوسي عدة كتب منها (الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية) ، والمسائل العشر ، وإيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، والتحفة في أوائل الكتب الشريفة ، وبغية القاصد ، وشفاء الصدور وغيرها .

— عند وفاة السنوسي في ٩ صفر ١٢٧٦هـ / ٧ سبتمبر ١٨٥٩م كانت الدعوة قد انتشرت في برقة وطرابلس ووادي وغيرها من بلاد السودان .

— وتحت زعامة ابنه وخليفته السيد « محمد المهدي » (١٨٥٩ — ١٩٠٢م) بلغت السنوسية ذروة نفوذها واتساع دائرتها .

(ب) مبادئ السنوسية :

لعل العبارة التالية التي لخص بها السنوسي منهجه تصور طبيعة دعوته : « أفكر في العالم الإسلامي ، فعلى الرغم من سلاطينه وأمرائه ورؤسائه وعلمائه ، فهم لايزيدون عن أن يكونوا كقطيع من الغنم الذي لاراعي له ، في كل محل من محلات الإسلام تجد المسلمين وعلماء الدين ، ولكنك لاتجد في العالم الإسلامي مرشداً حقيقياً تكون غايته سوق الجميع إلى هدف واحد . إن ديننا النحيف دين التوحيد أسس على الاتحاد ، ولكن الخلاف والتفرق قد سادا جميع النواحي لأن العلماء والمشايخ ليست لهم غير دينية حتى ينشروا العلوم والمعارف . انظروا أحوال أهل السودان والصحراء تجدوا أفواجاً من الشعوب يعبدون الأوثان . ويوجد في كل مسجد من

مساجد المعمورة جماعة من العلماء غير العاملين ولاهم لهم غير راحة أجسادهم ، حريصين على لذاتهم ، غير قائمين لواجباتهم ، لا ضمائر تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين . وقد اتصل بنا خبر أحوال العالم الإسلامي من القوافل التي ترد إلى بلادنا ، وأنا مغلوبون في كل محل ، وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق ، فالإسلام في حالة من التدهور المخيف وهو ما فكرت فيه ^(١) .

من هنا كان تأثر « محمد بن علي السنوسي » بالوضع السيئ الذي تردى إليه حال المسلمين دينياً وفكرياً وسياسياً واجتماعياً ، الأمر الذي حدا به إلى التفكير ، فوجد أن الخلاص للأمة لا يكون إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح . الإسلام المؤسس على القرآن والسنة ، مما جعله يدعو بالتالي إلى تطهير الدين من الشوائب والانحرافات ، والعودة به إلى منابعه الأولى كما أقرها السلف الصالح . وانطلاقاً من ذلك رأى السنوسي ألا يقتصر الناس على العبادة والتصوف ، بل أن يكونوا عباداً عاملين مجتهدين في أمور دينهم ودنياهم « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

نشأ السنوسي ، كما أسلفت ، نشأة جمعت بين النهج الفقهي والتصوف ، فقد تفقه في الدين على يد كبار علماء عصره في المغرب ومصر والحجاز ، ونهل من تعاليم الشاذلية وغيرها من الطرق الصوفية المنتشرة في المغرب على نحو ما بيناه ، وقد حدد هذا المزج المتوازن — بين علم الظاهر وعلم الباطن — مسار نهجه الإصلاحية ، ولا شك أن تجربته مع الطرق الصوفية كانت خير عون في تنظيم دعوته فمنها استنبط أسمى أهدافه ومنها اقتبس فكرة الزاوية ، وأساليب تطويرها لتكون محور نشاطه الديني والاقتصادي . ولكنه رأى في تركيز الطرق الصوفية على المسائل الروحية فقط وميل بعض أتباعها إلى الشطح والتواكل المميت إضافة إلى المبالغة في الزهد واستعمال الطبول والموسيقى في الأذكار ما يبعدها عن جادة الطريق ويخالف السنة . ولعل مما قوى هذا الاتجاه الإصلاحية تأثره بتعاليم الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » إبان زيارته لمكة المكرمة . ذلك أن الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » كما هو معلوم قد جعل القرآن والسنة أساساً للتمسك بالعقيدة الحققة ، ثم جوز فتح باب الاجتهاد والأخذ به ، ودعا إلى نبذ التقليد الأعمى وطالب بتطهير الدين مما علق به من شوائب كما أن في تلمذته على الشيخ « أحمد بن إدريس » العالم الصوفي الجليل صاحب الميول السلفية ما طمأنه على استقامة المنهج وسلامة الطريق .

جمعت السنوسية بين منهج التوحيد ومنهج التصوف ومزجت بينهما في طرح جديد يأخذ بالتربية الإسلامية والتطبيق العلمي لتعاليم الإسلام كأساس لبناء الشخصية المسلمة المنوط بها إصلاح المجتمع ، بناء يؤسس على الفقه الذي يشحذ العقول ويعتمد على التصوف الذي يصلح الأرواح .

فالسنوسية إذن دعوة صوفية سلفية ، جمعت بين العبادة والعمل والدعوة لإصلاح المجتمع . وهي من ثم حركة أممية متمشية مع منهج الإسلام السياسي الذي لا يشجع على التجزئة الجغرافية أو الإقليمية وهي تقوم على أساس لا انفصام فيه بين الدين والدولة . وهي حركة عبادة وعمل ، ولهذا نجد أنها قد نبذت الخمول والتبطل ، وشجعت أتباعها على العمل والإنتاج . وكان سبيلها إلى ذلك أعداد (الكوادر) المؤهلة عقدياً وجسدياً لتحقيق تلك الرسالة السامية . ويمكن إيجاز أهدافها في الآتي :

العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى ، والتزام تعاليمه الحققة ، وتوحيد المذاهب وفتح باب الاجتهاد ، ونشر الإسلام في البلاد التي لم تبلغها الدعوة المحمدية بعد ، ومقاومة النفوذ الأجنبي في بلاد المسلمين . ولم تلجأ السنوسية إلى العمل السياسي السافر إلا بعد أن أتمت بناء الشخصية المسلمة ، وأكملت إعداد مريديها إعداداً كاملاً ، مستعينة لبلوغ ذلك بتنظيمها الفريد المستند على الزاوية — مركز الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

(ج) الزاوية :

تحتل الزاوية مركزاً هاماً في تاريخ الحركة الصوفية في بلاد المغرب حيث غلب الجانب التعبدى والانقطاع إلى الله تعالى على عامة المترددين عليها . بيد أن السيد محمد بن علي السنوسي أعطاها مضموناً أبعد من ذلك إذ جعلها أساس نظامه التربوي التوجيهي ، فمع المحافظة على طبيعتها الدينية ، جعلها مركزاً لتفريخ نظامه الإصلاحى وإعداد (كوادره) من المجاهدين والمريدين المؤهلين من الناحيتين العقدية والعسكرية احتساباً لما يمكن أن يواجهوا به في تعاقب الأيام .

والزاوية عبارة عن مجمع سكني يحتوي على مسجد ، ومدرسة لتحفيظ القرآن ، ومعهد لتدريس العلوم الإسلامية ، ومساكن للمريدين والطلاب . وقد ضمت زاوية « الجغبوب » ثلاثمائة طالب تغذيتهم مكتبة تحتوي على ثمانية آلاف مجلد في سائر المعارف الإسلامية ، وتشمل الزاوية أيضاً منزلاً للضيافة ، وحجرات لإيواء اللاجئين ، وبها بئر للسقاية ، ومخزن للغلال والأمتعة . ويشغل كل عضو في هذه المؤسسة الدينية بإحدى المهن المفيدة كالزراعة أو التجارة أو التعليم ، وتقوم الزاوية على مبدأ تحقيق الاكتفاء الذاتى لسكانها . وتقام الزوايا عادة في مواقع استراتيجية ، تبعد الواحدة منها عن الأخرى بنحو ست ساعات سيراً على الأقدام وتقام بالقرب من الأماكن ذات القيمة التجارية أو الحربية أو الإدارية ، وعند تقاطع الطرق ، وبالقرب من الأراضي الزراعية ، وعلى الحدود : حدود مصر أو تونس أو السودان أو الجزائر .

يتكون مجتمع الزاوية من قطاع مصغر لأتباع الطريقة السنوسية ويمكن تقسيمهم إلى المنتسبين ، وهم يمثلون أكثرية الأتباع ، ثم الإخوان أو المريدين ، وهم قوام سكان الزاوية ، ويليهم شيوخ الزوايا ممن تبحروا في الفقه وتمرسوا في الطريق وهم المشرفون على الزوايا .

وتأخذ الحياة نمطاً تربوياً دقيقاً يبدأ بالحرص على إقامة الصلاة وأدائها في جماعة ، وحضور الدروس الدينية ، والالتزام بإدخال الأبناء في سلك التعليم لينهلوا من معينه الزاخر .

هذا وللطريق تعاليم خاصة يلتزم الأتباع بأدائها مما يوقظ فيهم العاطفة الدينية ويهذب النفس ويزكي الفؤاد ، وتلزم السنوسية أتباعها بمبادئ التوحيد ، وتحرم عليهم التضرع للأولياء وزيارة القبور . ولكل زاوية شيخ يؤم المصلين في مسجدتها ، ويعلم الأطفال القرآن الكريم ، ومبادئ القراءة والكتابة ، ويصبر الناس بالعقيدة الصحيحة ويفتيهم في أمور دينهم ، كما يياشر بينهم عقود الزواج وما يتصل به .

بالإضافة إلى ذلك فإن شيخ الزاوية ، يقوم بفض ماينجم من منازعات بين سكانها وبين سائر المواطنين . وحتى يتفرغ أتباعها للبدل والعطاء فإنها تحرم عليهم الخمول ، وتدعوهم إلى العمل ، وتشجعهم على التبرع بجهد أيام معلومات في أرض الزاوية في المواسم الزراعية . وأما التجار فإنهم يتبرعون بحصة من أرباحهم للزاوية .

اهتمت السنوسية بالزراعة وغرس الأشجار ، وفي شعار الطريقة : (الكيمياء هي كد اليمين ، وعرق الجبين) وحثّ للأتباع على النشاط والجد . وقد خصصت يوم الخميس لذوي الحرف من أرباب الحدادة والتجارة وغيرهم من الصباغين والإسكافيين وصانعي الأسلحة ودابغي الجلد ليمارسوا نشاطهم في إطار الزاوية .

ويُروى أن بعض الطلبة طلبوا من السيد محمد المهدي أن يعلمهم الكيمياء فقال لهم « الكيمياء تحت سكة المحراث » وكان يشجع الحرفيين للقيام على صناعاتهم ويقول لهم : « يكفيكم من الدين حسن النية ، والقيام بالفرائض الشرعية ، وليس غيركم بأحسن منكم » ، وكان يشاركهم في العمل اليدوي ويقول لهم : « يظن أهل الوريقات (العلماء) والسيبحات (المتصوفة) أنهم يسبقوننا عند الله ؟ لا والله لايسبقوننا » .

بهذا النمط التربوي البسيط برهن دعاة السنوسية على مدى فاعلية تعاليمهم وقدرتها على التغيير ، وأوضحوا أن دعوتهم لا تقتصر على التعبد وقراءة الأوراد بل تشمل العمل المفيد . وأن طريقتهم تجمع بين الالتزام الشرعي والانتماء الصوفي والعمل الشريف .

في خلال سبعة عشر عاماً استطاع السنوسي الكبير أن يرسى تعاليمه عن طريق الزوايا . وعن طريق نظامها التربوي المتكامل دينياً واقتصادياً وعسكرياً ، واستطاع أن يعد جيلاً من المصلحين قادراً على نشر تعاليم السنوسية بين البدو والقاطنين في المنطقة ، وقادراً على نشر الإسلام بين الشعوب الإفريقية القاطنة على الأطراف الجنوبية للصحراء ، واستطاع أن ينشئ كتائب للجهاد في سبيل الله .

هذا وتعطي الإحصائية أدناه كشفاً بعدد الزوايا ومدى انتشارها عند وفاة السيد المهدي في عام ١٩٠٢م كمؤشر لما حققته الدعوة من انتصار . فقد بلغ عددها ١٤٦ زاوية موزعة في كثير من البلدان نذكر منها :—

برقة	٤٥	مصر	٢١	بلاد العرب	١٧
طرابلس	١٨	فران	١٥	الكفرة	٦
السودان	١٤				

ويبدو جلياً من الإحصائية ميل زعماء الطريقة إلى التركيز على البدو الضاربين في الصحارى والواحات أكثر من سكان الحضر . وإحكام قبضته على تلك الزوايا ، ولتقوية نظام الإشراف الدقيق الذي كانت تدار به من المركز . نقل السيد « محمد المهدي » رئاسة الدعوة من « الجغبوب » إلى الكفرة في عام ١٨٩٥ م . ولقد ازدهرت الكفرة حتى صارت مركزاً تجارياً هاماً وملتقى لقوافل إفريقيا الوسطى والشمالية . وكان التجار والحجيج الذين يسلكون طرقها هم رسل الدعوة وحملة تعاليم الإسلام إلى الأماكن النائية . ولم يقف الجهد على التجار بل اهتم « محمد المهدي » بإرسال الدعاة إلى سلطنات أواسط إفريقيا وغربها لنشر الدعوة بينهم ، كما بادل بعض سلاطينها الرسائل والهدايا . ومن خير وسائل نشر الدعوة شراء الرقيق القادمين من وداي ، وعنتق رقابهم لوجه الله ، ثم تفتيهم في الدين . وكان لهؤلاء المحررين أثر طيب وكبير في نشر الإسلام ، وبث تعاليم السنوسية في بلادهم حين يعودون إليها ، إذ صاروا يترددون على مراكز العلم في ليبيا . ونتيجة لجهود الدعاة وصلت السنوسية إلى بلاد كور « وتبستي » « وبرقو » و« اندي » و« كانم » و« تشاد » و« ازقر » و« باقرمي » .

(د) السنوسية والخلافة العثمانية :

من خلال شبكة الزوايا المنتشرة في ليبيا تمكن السنوسيون من السيطرة على المنطقة سيطرة تامة ، ولكن دون أن يعطوا ذلك الإنجاز طابعاً سياسياً . وحقيقة الأمر أن تنظيمهم صار بمنزلة دولة داخل الدولة العثمانية . وكان زعماء السنوسية يتجنبون الصدام بالقوى السياسية المحيطة بهم حتى تعد الدعوة (كوادرها) ، ولكن تنظيمهم الدقيق لأتباعهم ونموذجهم الإداري الطليعي المتمثل في الزوايا مكنهم من مواجهة أي احتمال متوقع .

اتسم موقف السنوسية من الخلافة العثمانية بالحذر . فبرغم المآخذ الكثيرة التي أخذها السنوسيون على تلك الدولة ، مثل ضعفها وفشلها في مواجهة الخطر الأوربي بفاعلية ، إلا أنها كانت في رأيهم خير من يستطيع حماية المسلمين ، ولذا لم يشاؤوا أن يتحرشوا بها أو يخرجوا عليها وهم في مرحلة البناء .

ومع أن ذبوع الطريقة السنوسية وانتشار زواياها في ليبيا لم يحز رضا الخليفة العثماني إلا أنه سعى لكسب ود زعماء تلك الطريقة . ولما كانت السنوسية ذات نفوذ روحي وأدبي كبير بين البدو وزعماء القبائل رأت الإدارة العثمانية أن تستفيد من نفوذها في إدارة البلاد . ولعل أول اعتراف رسمي بتلك الحركة ورد في عهد السلطان عبد المجيد عام ١٨٥٦م الذي منح بموجبه واحة « الجغبوب » للسنوسي الكبير ، وسمح له بجمع ضرائب من أتباعه ، كما أعفيت أملاك الزوايا من الضرائب . وفي وقت لاحق اعتبرت الزوايا حرماً آمناً وحماً يلجأ إليه الناس . وكان السلطان عبد المجيد من جانبه يسعى لتجنيد السنوسيين ليسهموا في نشر دعوته للجامعة الإسلامية .

ومع هذا وذاك فقد ظل جو من الشك يكتنف العلائق بين الدولة العثمانية والسنوسية ، حيث سعت الأولى لإحكام قبضتها على الثانية بفرض ضرائب على إنتاج الزوايا ، ولكنها لم تفلح . ولعل مما أثار حفيظة السلطان العثماني شكوى الدول الأوربية من تزايد النفوذ السنوسي ، الذي يشكل خطراً كبيراً على مطامعها ، فأظهروا الحركة السنوسية بمظهر الساعية لإقامة دولة مستقلة . وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في عام ١٩١١م واحتلت ليبيا ، أدرك العثمانيون مدى فاعلية السنوسية في مقاومة التوغل الأوربي ، فعينوا السيد « أحمد الشريف » الزعيم الثالث للحركة نائباً عنهم في الجزء الأوسط من إفريقيا ، وهو دائرة تمرکز زواياهم .

وقد جذب نجاح الحركة السنوسية انتباه بعض حركات الإصلاح الإسلامية الأخرى . فقد سعى « محمد أحمد المهدي » ، إلى محالفة « محمد المهدي » وعهد له بوظيفة هامة في الثورة المهدية لكن السنوسي تجاهل الطلب . ولعل مرد ذلك إيمانه بأن مايقوم به من إصلاح لا يقل أهمية عما انتواه الإمام المهدي في السودان . وفي الوقت نفسه طلب العراييون في مصر مساعدة « محمد المهدي » ووقوفه إلى جانبهم ولكنه التزم بأسلوبه الحذر في التعامل . ولما طلب السلطان العثماني عونه في حربه ضد « روسيا » في عام ١٨٧٦م لم يشأ أن يغير نهجه . وفي مجال آخر نجده يعتذر لكل من « ألمانيا » في عام ١٨٧٢م و « إيطاليا » في عام ١٨٨١م عندما طلبتا منه معونتهما ضد التوسع الفرنسي .

وينبع موقف السيد « محمد المهدي » من إيمانه بالتركيز على عملية البناء الداخلي المتمثل في إعداد المجاهدين وإصلاح المجتمع ونشر الإسلام . لكنه في ذات الوقت تصدى هو وخليفته للخطر الأوربي لما بدأ الفرنسيون يزحفون ضد إفريقيا الوسطى بما فيها « وُدَّاي » ووقف ضد « إيطاليا » لما هاجمت ليبيا في عام ١٩١١م .

لم ترحب دول أوربا الاستعمارية بحركات الإصلاح التي اجتاحت العالم الإسلامي ، إذ رأت فيها خطراً على مصالحها ، وسعت لتأليب الخليفة العثماني عليها بدعوى أنها تشكل خطراً على

نظامه ، ورأت في الحركة السنوسية — التي اتخذت من ليبيا الواقعة بين منطقتي النفوذ الإنجليزي في وادي النيل والفرنسي في شمال أفريقيا ميداناً لدعوتها — خطراً على التبشير المسيحي في داخل القارة . وعندما غزت إيطاليا ليبيا نظم السنوسيون حركة المقاومة ، والتف زعماء القبائل حول السيد « أحمد الشريف » ، وشنوا حرباً شعواء ضد الإيطاليين لأنهم رأوا في اعتدائهم اعتداءً على ديار الإسلام . واستمرت المقاومة السنوسية برغم عقد الصلح بين السلطان « وإيطاليا » زمناً طويلاً .

الثورة المهدية :

(أ) النشأة :

ولد محمد أحمد بن عبد الله في « دنقلا » في أسرة دينية ترجع نسبها إلى النبي ﷺ ، وقد اشتهرت الأسرة بهذا النسب قبل أن يفصح المهدي عن دعوته . وكان مولده في يوم ٢٧ رجب ١٢٦٠ هـ / أكتوبر ١٨٤٥ م . وقد اشتهر « محمد » بالميل إلى التدين والزهد منذ صباه . وبعد أن حفظ القرآن في الخلوة درس الفقه على الفقيه الهاشمي ، ثم تتلمذ على رجل آخر من « شنقيط » وأخيراً على الشيخ « محمد الخير » في خلاوي الغبش ببربر ، وتابع « محمد أحمد » الدراسة حتى صار عالماً جليلاً على دراية بكل المعارف الإسلامية المتوفرة له في البلاد . وفي عام ١٢٧٧ هـ / ١٨٦١ م سلك الطريقة « السمانية » على يد الشيخ « محمد شريف نور الدائم » ، حفيد مؤسس الطريقة في السودان . فانقطع للصلاة والعبادة والزهد حتى اشتهر بذلك ، وقد هياه علمه وورعه أن يتبوأ مكاناً رفيعاً في سلم الطريقة السمانية ، وصار شيخاً يُسلك الناس في هذه الطريقة .

وفي عام ١٢٨٦ هـ / ١٨٧١ م رحل « محمد أحمد » مع إخوته العاملين بصناعة المراكب الشراعية إلى جزيرة « أبا » الواقعة على النيل الأبيض ، لكثرة أشجارها . وهناك شيد مسجداً وبنى خلوة للتدريس ، فاجتمع إليه سكان الجزيرة وغيرهم من عرب البادية ، وسلكوا الطريقة عليه . وبدأ يعظ الناس وينهاهم عن المفاصد ، ويدعوهم إلى تجنب البدع ، وإلى التمسك بالحق المبين . وكانت تلك بداية حركة الإصلاح التي ظهرت واضحة في معارضته لبعض ممارسات شيخه « محمد شريف نور الدائم » ، في سنة ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٨ م . وقيل : إن « محمد أحمد » عاب على شيخه سماحه بالرقص والغناء عند ختان أبنائه . وقال : إن الشريعة لا تقر مثل هذه البدع . وعوقب « محمد أحمد » على جرأته على شيخه فطرد من الطريقة . لكن شيخاً منافساً للشيخ « محمد شريف » هو الشيخ « القرشي ود الزين » جدد له العهد . واستمر « محمد أحمد » في قراءة الأوراد وتسليك المريدين . واشتهر بين الناس أنه ترك أستاذه الأول لأنه خالف السنة . وذاع صيته بين الناس . وكان من عادته أن يخرج من جزيرة « أبا » في زيارات للأقاليم المختلفة

متفقدا لأحوالها وداعيا للإصلاح . ووجدت دعوته قبولا عند العامة الذين كانوا يشكون من بطش الحكومة التركية المصرية ، وبدأ السخط فيهم يأخذ مظهراً دينياً .

بدأ الإسلام يشق طريقه في السودان بوادي النيل منذ العقد الثالث للهجرة ، ومنذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت سلسلة من الممالك الإسلامية . وكان النهج الفقهي الصوفي هو السمة الغالبة على البلاد . لكن العزلة الفكرية التي اكتنفت البلاد جعلت النزعة الصوفية غالبة على العلماء . ولعل خير ما يعكس روح العصر وثقافته كتاب : « الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشهداء » لمحمد النور بن ضيف الله . وبدأت هذه الصورة تتغير في العقود الأخيرة من سلطنة « الفونج » الإسلامية (١٥٠٤ - ١٨٢١ م) نتيجة تأثرها بالبعث الصوفي ، الذي اجتاحت المقاطعات العربية في الخلافة العثمانية ، عن طريق الطلاب أو عن طريق الدعاة الصوفيين أمثال « أحمد الطيب البشير » و « محمد عثمان الميرغني » .

نتيجة لهذه المؤثرات ازداد نفوذ بعض الطرق الصوفية وتجددت فاعليتها . وقد انعكس هذا في ظهور مؤلفات دينية بأقلام مشايخ تلك الطرق ، خاصة « السمانية » و « المجذوبية » و « الختمية » أو « الميرغنية » . وقد اهتم هؤلاء المشايخ بالكتابة في الأوراد والموالد والمناقب وآداب الطرق وتعاليمها والتوحيد إلى غير ذلك .

شهد العهد التركي المصري (١٨٢١ - ١٨٨٥ م) — الذي يمثل أول انتهاك لحرمة استقلال البلاد ، وكان وقعه ثقيلاً على المواطنين — بوادر تضائل نفوذ العلماء والمتصوفة التقليديين — ومهد ذلك التحول إلى ظهور فئة جديدة من العلماء ذات الارتباط الوثيق بالحكومة ، والذين أسماهم الإمام « محمد أحمد المهدي » (علماء سوء) . لكن الفئات التقليدية من العلماء المتصوفة كانت أكثر التصاقاً بالمجتمع السوداني ، وإلى هذه الفئة ينتمي « محمد أحمد المهدي » .

أحس « محمد أحمد المهدي » بالوضع السيئ الذي تردت إليه البلاد تحت نير الحكم التركي المصري ، وذلك لابتعاد الناس عن العقيدة الحققة ، وانتشار البدع ، وتفشي الانحطاط الخلقي ، وما صاحب ذلك من فساد جهاز الحكم ، وفداحة الضرائب ، واتخاذ بعض المسيحيين من الأوربيين حكاما على البلاد . وعلى نمط إسلامي سلفي — جمع بين الهداية الروحية والإصلاح الديني ، والجهاد في سبيل الله — دعا الإمام المهدي لاجتثاث الفساد ، ومحاربة البدع ، ومن يدعمها ، وسعى لتطبيق شرع الله بعد أن أهمله الناس .

(ب) جذور الدعوة :

تؤكد المصادر أن الإمام المهدي نشأ في كنف الطريقة الصوفية ، وعلى نهجها حقق مكانته في المجتمع قبل أن يفصح عن دعوته . ومع أن المصادر لاتشير إلى أن الإمام المهدي قد زار الحرمين الشريفين أو أنه تأثر مباشرة بفكر الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » عن طريق تلاميذه أو مؤلفاته ، إلا أن محصلة دعوة الإمام المهدي ترجح أن الإمام المهدي ، وإن لم يتصل بفكر الشيخ محمد عبد الوهاب مباشرة فإنه ربما قرأ عنه أو سمع . ولا غرابة أن يصل عالم في سعة علم الإمام المهدي ، وعمق دراسته للقرآن الكريم والسنة الشريفة وقوة عارضته في الاستنباط ، أن يصل إلى نهج يماثل نهج الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » أو الإمام الشوكاني (١١٧٢ / ١٢٥٠ هـ — ١٧٥٨ / ١٨٣٤ م) .

إن النمط الذي اختاره محمد أحمد المهدي لإعلان دعوته القائم على فكرة « المهدي المنتظر » أقرب إلى فكرة المتصوفة منه إلى تعاليم الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » . ولكن الدراسة التفصيلية إلى برنامج الإصلاحية تؤكد أن جوهر دعوته أقرب إلى دعوة التوحيد .

ظهرت فكرة المهدي أو المنقذ الموعود في عهد مبكر من تاريخ الأمة الإسلامية . وظلت دعوة المهدي تمثل محوراً هاماً في حركات المعارضة للنظم القائمة كلما زاد الظلم واشتد الاضطهاد ، واتخذها الناس شعاراً لبسط العدل . وقد تلقفت بعض الفرق الإسلامية هذه الفكرة وأضفت عليها كثيراً من التفاصيل ، ولكن دون أن تفقد جذورها في العقيدة الإسلامية . وكان الشيعة من أوائل من روجوا لفكرة المهدي واتخذوها مدخلاً للسيطرة على جهاز الحكم . كما تبنّاها المتصوفة من بعدهم ، وكتب عنها محيي الدين بن عربي الذي راجت مؤلفاته مثل (الفتوح المكية) و (عنقاء مغرب) في السودان وادي النيل في القرن التاسع عشر . وفي تلك الكتب أسهب « محيي الدين » في الحديث عن « المهدي المنتظر » وجعله في هيئة قطب صوفي . وتحديث عنه « عبد الوهاب بن أحمد الشعراني » في كتابه (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار) وكان كتابه هذا متداولاً في السودان . وقد هيأت هذه الكتب وغيرها المناخ لانتشار فكرة المهدي بين السودانيين .

وقد تأثر أهل السنة بأفكار الشيعة والمتصوفة إلا أن نظرتهم لفكرة المهدي كانت أكثر اعتدالاً ، وكانوا يرونه بمثابة المصلح الديني الذي يعيد الإسلام إلى عظمته ، وربطوها بفكرة المجدد الذي يظهر على رأس كل قرن .

ورد ذكر المهدي في نحو ثلاثين حديثاً تناول بعضها العلامة « ابن خلدون » بالنقد ، وأورد ما يأخذه على روايتها . ولكنه اعترف بقوة أسانيد بعضها مثل ما رواه الحاكم من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : (لانقوم

الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً) وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وإن لم يخرجاه . ويختم « ابن خلدون » عرضه للأحاديث التي تتنبأ بظهور المهدي وتصف رسالته بقوله : (فهذه جملة الأحاديث التي أخرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان . وهي كما ترى لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل) .

ومع هذا كله فإن ابن خلدون يرجح أن فكرة المهدي قد وجدت قبولا من عامة المسلمين لقوله : (أعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على مر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك ويسمى المهدي)^(٣) .

وتدل كثرة من ادعى المهديّة على شيوع الفكرة عند المسلمين مثل « عبد الله المهدي » (ت ١٢٣٠ م) والشيخ « حمد بن الترابي » الصوفي السوداني (ت ١٧٠٥ م) . وفي القرن التاسع عشر تمثلها مهديون في « القوقاز » و « كردستان » و « الهند » و « إيران » . وكان من أشهرهم وأكثرهم نجاحاً « محمد أحمد بن عبد الله » السوداني .

ومع أن نسبة النجاح بين الذين ولجوا هذه التجربة ضئيلة ، فإن التنبؤات السياسية التي تضمنتها فكرة المهدي ظلت تحمل في جوانبها آمال المضطهدين ، وأحلام المظلومين ، لتحقيق شعائر الإسلام الحقّة التي بشرت بها أحاديث الرسول ﷺ ، بتحقيق عالم يسوده الإخاء ، وترفرف عليه ألوية العدل . وكانت الصيغة الدينية هي محور تلك المحاولات وإن اتسعت لتشمل آفاقاً أخرى ، إلا أن الدين هو أساس كل شيء في المجتمع الإسلامي .

(ج) إعلان الدعوة :

وفي السودان كان الناس يؤملون في الخلاص وهم في العقد الأخير من القرن الثالث عشر الهجري ، وكانوا يترقبون الخلاص على يد المهدي الذي سمعوا كثيراً عن قرب مقدّمه ، ولعلّ مما أعطى الفكرة رواجاً كبيراً أن حركة الجهاد الفولاني التي قادها الشيخ « عثمان بن فودي » في « نيجيريا » قد هيأت الناس لقرب ظهور المهدي ، وبشّرت بأن المهدي المنتظر سيظهر في المشرق ، وحثت أتباعها على تأييده مما أدى إلى هجرة بشرية كبيرة من تلك المنطقة إلى السودان وادي النيل والحجاز للمشاركة في هذا الحدث العظيم . فلما أعلن المهدي مهديته خاطب الناس بما كانوا يتوقعونه .

وفي سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م بدأ المهدي يبشر بدعوته بين أصدقائه وخاصته من الفقهاء ومشايخ الطريقة السمانية ، وكان من أول المصدقين به ، عبد الله بن محمد الذي خلفه في قيادة الثورة .

وفي غرة شعبان من العام نفسه (٢٩ يونيو) أعلن المهدي عن دعوته وحث الناس على القيام معه لنصرة الدين والهجرة من أماكنهم للانضمام إليه ومبايعته على الجهاد في سبيل الله .

سلكت الدعوة أربع سبل لتحقيق هدفها : بدأت الدعوة سرية وقفا على الخاصة والأصحاب ، ثم صارت عامة يوم خاطب بها الحاكم التركي ويوم بث الرسائل والمنشورات في رمضان ١٢٩٨ هـ / أغسطس ١٨٨١ وعندما نازل الحكومة في موقعة الجزيرة أبا ، ومن استجاب من هؤلاء أخذ البيعة أو تعهد بالالتزام بتعاليم المهدي . وكانت المرحلة الثالثة عندما دعا الناس إلى الهجرة فراراً بالدين إلى مكان يكون فيه قوام الدين . وكانت المرحلة الرابعة يوم دعاهم إلى الجهاد في سبيل الله .

ومع أن الجهاد كان أداة الثورة إلا أنه لم يكن أسلوبها الوحيد ، وكانت الرسائل أسلوب المهدي المفضل . فقد بعث المهدي وخليفته من بعده مئات الرسائل التي بين فيها مقاصد دعوته . وكان يعتمد إلى الإقناع بإيراد الحجج المستندة على الكتاب والسنة ، فإذا فشلت الرسائل أعقبها بإعلان الحرب ، وكان الإمام المهدي يستقطب المؤيدين له عن طريق الرسائل أو يدعواهم بالهجرة له ، ثم يسند لهم مهام نشر الدعوة في مناطقهم بالأسلوب الذي يقتضيه الحال : بالإقناع أو الجهاد .

جاء في واحدة من أولى رسائله إلى الحاكم التركي رؤوف باشا : وبعد : فعلى مقتضى المكاتبة فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق على تقويم السنة ، والهجرة بالدين . ومما عليه الطباع الزمنية ، أمر من سيد الوجود ﷺ . فمن تبع صار من المقربين الفائزين ، ومن خالف خذله الله في الدارين وصده بقوته .. وأما المواعظ للمؤمنين فهي مبينة ، فمن لم يصدق طهره السيف . وليكن المعلوم أنه أتاني من الحضرتين (حضرة) النبوة وحضرة الأقطاب سيف ، وأعلمت أنه لا ينصر على من معه أحد ، ومن أتانا بالعداوة يأخذه الله : إما بالخسف أو بالغرق وذلك إعلام منه ﷺ (٤) .

وقال في رسالة أخرى مخاطباً أحبابه في الله ، المؤمنين بالله ، وكتابه : « أما بعد فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن ، بل أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن ، لإقامة الدين والسنن ، ولا يتوانى عن ذلك عاقل ، لأن غير الإسلام للمؤمن تجبره ، ثم أحبابي كما أراد الله في أزل وقضائه ، تفضل على عبده الحقير الدليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر . وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ، والأقطاب والخضر عليه السلام » (٥) .

ويقول في منشور آخر : « إن مقصدنا سلامة العباد ، وإصلاح ما كان من الفساد ، وإحياء ما اندرس من سنة خير العباد . ولم يكن قصدنا في ملك ولا جمع مال ، وليس اعتماد في قوامنا

على أحوال الدنيا ، ولا رجالها ، ولا استعباد واحد منها ، وإنما المراد أن تقف القلوب على السير فيما يرضي الله ، ونكون إخواناً في الله وعبيداً لله ، قائمين بأمر مولانا جل وعز ، من غير تلوث بغرض من أغراض الفانية .

بهذه الوسائل الأربع : الدعوة والبيعة والهجرة والجهاد ، اهتم الإمام المهدي بإعداد أتباعه ، وهم الأنصار ، على نمط إسلامي مؤسس على القرآن والسنة ، وما ورثه من تعاليم صوفية لأحداث الإصلاح المرجو . وكانت البيعة بمنزلة عقد يلزم الأنصار بطاعة الله وعدم الإشراك به ونصرة المهدي .

وعلى نمط إسلامي سلفي جمع بين الهداية الحقة ، والإصلاح الديني ، والجهاد في سبيل الله ، أعلن المهدي دعوته . داعياً للعقيدة الحقة ، ممثلة في القرآن والسنة ، محارباً للبدع والمفاسد وما صاحب الحكم التركي الأجنبي من قهر وجبروت .

في أول اصطدام بين المهدي والحكومة في موقعة « أبا » في ١٦ رمضان ١٢٩٨ هـ / ١٢ أغسطس ١٨٨١م كتب النصر للأنصار أتباع الإمام المهدي . وبهذا فشلت أول محاولة للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره وتتابع الانتصارات في « قدير » و « الأبيض » وفي « شيكان » حيث أباد جيشاً مصرياً بقيادة ضابط بريطاني . كانت تلك الانتصارات خير دعاية لدعوة المهدي فتقاطر المؤيدون من كل حذب وصوب ، وأضفى الناس على انتصاراته المتوالية على الدولة كثيراً من صور المبالغة . وعمت الثورة أجزاء كبيرة من البلاد ، وزاد التأيد لها حتى سقطت مدينة « الخرطوم » حاضرة البلاد في يده في يوم الاثنين ٩ / ربيع الآخر ١٣٠٢ هـ / ١/٢٦ / ١٨٨٥م . وكان سقوطها إيذاناً بانتهاء العهد التركي المصري وانحساره إلى الأطراف . واختار المهدي « أم درمان » وسماها « البقعة المباركة » عاصمة الدولة المهدية .

وأقام المهدي دولة إسلامية مؤسسة على تعاليم الإسلام وشرع الله . وكان نجاحها وانطلاقها من السودان بمنزلة إعلان كبير عن هذا البلد الذي تأصلت فيه التعاليم الإسلامية حتى أنجبت من يسعى لتجديد الإسلام وبعثه على أساس عالمي .

(د) فكر المهدية :

قامت فكرة الإمام المهدي التوحيدية على ما أرساه القرآن وبيته السنة من أفراد الله تعالى بالعبودية ، والتوجه الصادق بالأعمال كلها إليه . ويتضح ذلك جلياً في صيغة البيعة التي أوجبها على كل من انخرط في حركته الإصلاحية ، وصيغتها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الولي الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم . أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ، وألا تشرك به أحداً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نأتي بيهتان ، ولا نعصيك

في معروف . بايعناك على زهد الدنيا وتركها ، والرضا بما عند الله ، رغبة بما عند الله والدار الآخرة ، وعلى ألا نفر من الجهاد » .

كان أساس تعاليم المهدي إعادة الدين إلى ما كان عليه من نقاء في أيام الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين . واهتم المهدي بتطبيق شريعة الله على هدي القرآن والسنة ، مضافاً إليها منشوراته التي تضمنت تفسير بعض النصوص الشرعية ، أو اجتهد فيها لمعالجة بعض القضايا .

وكان المهدي يرى بما أنه يتصل بالرسول ﷺ مباشرة ويتلقى عنه — كقوله : « أخبرني سيد الوجود ﷺ » ، فأنكر كثيرون ذلك ، وقوله : « إن أمرنا ناشئ عن إلهام صائب مع المشورة المسنونة » — أنه في وضع يمكنه من استنباط الأحكام . ومهما كان رأينا في دعوته الإلهام ، فقد كان هو مدخل المهدي لاستنباط الأحكام .

وحجة الإمام المهدي في ذلك أن تعدد المذاهب ، واختلاف الملل والنحل ، وكثرة مآلف من المسائل الفرعية ، قد حجب نور الدين الحق ، وباعد بين المسلم وبين ينبوعي الدين (القرآن والسنة) وسئل مرة : « معلوم أن المذاهب أربعة : الحنفي ، والشافعي ، والمالكي ، والحنبلي ، فما مذهب المهدي ؟ فقال : هؤلاء الأئمة جزاهم الله درجوا الناس ووصلوا إلينا .. فجزاهم الله خيراً . فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا وأن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ^(١) » .

وقال إن الطرق الصوفية تعددت واختلفت حتى ظن أن كل شيخ يقوم بتأسيس دين جديد ، وأن غيره من زعماء الطرق خارج الدين . وحتى ضل القوم ضلالاً مبيناً ، وأصبحوا يوجهون أنظارهم لمشايخهم بدلا من ينبوع الدين والعرفان الأصيل : القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وفي منتصف عام ١٣٠١هـ / أوائل ١٨٨٤م ألغى المهدي العمل — بالمذاهب الأربعة وأبطل الطرق الصوفية ، ووضع حظراً على تبادل الكتب إلا كتب الأصول كالمصحف الشريف والصحيحين وغيرها مما أجازته كإحياء علوم الدين للغزالي . وأصدر المهدي بعض المنشورات يبسط فيها تعاليم القرآن والسنة الشريفة حتى يسهل فهمها عند عامة الناس . وقال : إن الطريق الموصل إلى الحق عز وجل محصورة في ستة مناشط ، صلاة الجماعة ، والجهاد في سبيل الله ، وامثال أوامر الله ونواهيه ، والإكثار من كلمة التوحيد ، وتلاوة القرآن ، والراتب . والراتب عبارة عن آيات من القرآن الكريم والحديث الشريف وأدعية ، فرض على أنصاره حفظها عن ظهر قلب ، وتلاوتها كل يوم مع حزب من القرآن عقب صلاة الصبح وبعد صلاة العصر .

وأصدر بعض المنشورات بين فيها كيفية أداء الوضوء والصلاة والمناجاة ، وتناول فيها بعض القضايا الاجتماعية كالمساواة بين الغني والفقير . فألزم أنصاره لبس الجبة المرقعة ومنع النساء من لبس الحلي ، وأمر البدو بحلق شعر الرأس ، ودعا إلى تخفيض نفقات الزواج ، وإبطال الغناء

والرقص ، ومنع البكاء وراء الميت ، وأبطل السحر وكتابة الأحجية ، وحرم زيارة أضرحة الأولياء ، وشرب الخمر ، وتعاطي التبغ ، ونهى عن خروج النساء إلا لحاجة ، وحثهن على طاعة أزواجهن ، وستر أنفسهن ، وقضى بعقوبة من تقف حاسرة الرأس تعزيراً . وفي عهد الخليفة عبد الله طبق نظام قضاء المظالم ، وعرف نظام الحسبة الذي يعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحث الناس على أداء الشعائر .

كان الجهاد كما أسلفنا أداة الثورة ووسيلتها لنشر تعاليم المهديّة وقد قدمه الإمام المهدي على أحد أركان الإسلام الخمس ، وهو الحج .

بهذا الأسلوب العملي سعى الإمام للقضاء على الرذيلة واجتثاث مظاهر الفساد في المجتمع بغية تطهيره ، وتأهيله لحمل أعباء الدعوة . وفي الوقت نفسه شدّد على صلاة الجماعة لبث روح الوحدة والإخاء بين أتباعه .

ولقد أدى انتصار الثورة المهديّة على العهد التركي المصري إلى تحول كبير في المجتمع السوداني ، فبينما اهتم العهد الأول وهو نظام مدني باستغلال موارد البلاد دون التفات كبير لمصلحة الفرد ، ركز الإمام المهدي على تربية الفرد على نمط إسلامي بخسبانه العنصر الأساسي في بناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة السلفية . وقد وضع جلياً في صيغة البيعة ، وفي السمو بالفرد . وأقام المهدي حكومة سلفية أحيا فيها أجهزة خلافة الراشدين من : بيت مال ، ودار للقضاء ، وقام بجمع الزكاة ، وجبي العشور ، وتوزيع الفيء ، والغنيمة ، على أساس شرعي . ثم أنه قسم وحدات الجيش أو راياته على نمط إسلامي وأصبح هو على رأس الدولة باعتباره خليفة رسول الله ﷺ ، يليه خلفاؤه الأربعة ، وعماله ، وأمراء الجيش وغيرهم من العمال الذين رتب وظائفهم على نهج إسلامي .

لاحظ بعض المؤرخين وجود شبه بين ما طبقه الإمام المهدي ، ودعوة التوحيد . ويظهر هذا التشابه جلياً في تشدد المهدي في مبادئ التوحيد ، وجعل الربوبية لله وحده ، والعودة بالدين إلى ينابيعه الأصلية ، واتخاذ الجهاد سبيلاً لتحقيق أهدافه وتحريم التقرب من الأولياء وزيارة أضرحتهم ، والامتناع عن التدخين وغيرها .

(هـ) أثر الدعوة خارج السودان :

لاشك أن انتصارات الثورة المهديّة على الحكم التركي المصري وما أفرزته من مقاومة للقوى الاستعمارية قد أحدث دويّاً عظيماً في كثير من الأقطار الإسلامية . ولعل خير ما يعكس هذا الصدى ما جاء على لسان الخليفة « عبد الله » في رسالة « لحياتو بن سعيد » حفيد « عثمان ابن فودي » في « نيجيريا » بتاريخ ١٤ / صفر / ١٣٠٣ هـ — ١٢ / ٢ / ١٨٨٦ م . « وقد حضر بطرفنا بعد انتقال المهدي أمة من الناس من الجهات النائية البعض من الهند .. وبخارى ومكة

المكرمة .. ومن بني تميم ومن الحبشة وتونس « ويضيف في رسالة أخرى ، « ومن استنبول والجبرته .. وكلهم قد أخذوا البيعة عنا ، واندرجوا في سلك الأصحاب ، وصاروا من أنصار الدين ، والبعض قد كملت تربيته وتنور قلبه ، وحررنا المكاتبات إليه وإلى أهالي جهته لدعوته إلى الله ووجهنا إليهم رسلا من طرفنا » .

بدأ تطلع « المهدي » للخروج بالدعوة من إطارها المحلي إلى رحاب العالم بعد فتح الأبيض مباشرة فقد جاء في منشور بتاريخ ١٠ / ربيع الأول ١٣٠٠ هـ — ١٩ / يناير / ١٨٨٣ م أن الرسول ﷺ قد بشر « المهدي » بأنه سيصلي في مسجد « بربر » ثم المسجد الحرام بمكة وفي مساجد المدينة المنورة ومصر وبيت المقدس وبغداد والكوفة . وفي هذه البشريات حث المهدي على ضرورة نشر دعوته على نطاق عالمي .

من « الأيُّض » بدأ المهدي استقطاب بعض الزعماء للانخراط في الدعوة مثل سلطان ودّاي « ومحمد المهدي السنوسي » « وحياتو بن سعيد » .

تعطى رسالته « لمحمد المهدي السنوسي » نموذجاً طيباً لباقي الرسائل وجاء فيها « وأعلم يا حبيبي قد كنا ومن معنا من الأعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهديّة للعهد الذليل » . ثم عرض عليه منصب « الخليفة الثالث » في دولته ويختم رسالته بقوله : « فإذا بلغك جوابي هذا فإما أن تجاهد في جهتك إلى مصر ، وتواجهها وإما أن تهاجر إلينا ولكن الهجرة أحب إلينا » . وتجاهل « السنوسي » أمر « المهدي » كما نوهنا من قبل . وواصل الخليفة « عبد الله » اهتمام « المهدي » بأواسط بلاد السودان ، فخاطب سلاطين تلك المنطقة وعين بعض من استجابوا عمالاً له ، كما استعمل الأنصار من أبناء البلاد الأخرى في نشر الدعوة . وقد وجدت الدعوة استجابة كبيرة في شمال « نيجيريا » .

ولم تقف اتصالات المهدي على أواسط بلاد السودان وليبيا بل شملت بلاد المغرب الأقصى . وجاءت المبادرة من بعض المغاربة القاطنين في مصر ممن سمعوا بدعوة « المهدي » وآمنوا بها .. ثم راسل المهدي والي فارس ، وخاطب أهل مراکش للانخراط في دعوته ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله .

وأبدى الخليفة عبد الله اهتماماً مماثلاً لنشر المهديّة في جزيرة العرب فكتب في شوال ١٣٠٣ هـ / يوليو ١٨٨٦ م إلى عدد من قبائل الحجاز يحرضها على الجهاد ، وسمى الخليفة عبد الله زعيم قبيلة الأحامدة عاملاً له على قبائل الحجاز . كما عين الأمير « عبد الله بن فيصل بن سعود » الذي أبدى حماسه للمهديّة عاملاً على نجد .

ولكن صمت المصادر عن تلك الاتصالات يوحي أن نتائجها العملية لم تكن كبيرة . وقبل وفاة المهدي بفترة يسيرة خاطب « المهدي » والي مصر ، الخديوي « محمد توفيق » وعلماءها

وسكانها ، كلا على حدة . وفي رسالته للخديوي ، التي تحمل طابع الإنذار ، حثه « المهدي » على وجوب التمسك بالدين وعاب عليه تعاونه مع الانجليز أعداء الله . ونبه العلماء في رسالته لهم أن تهاونهم في أمر الدين وموافقتهم على شهوات الحكام قد ساعدت على تغول الكفرة ، ثم طلب منهم التسليم بدعوته وأخبرهم بعزمه على فتح مصر .

وكان الخليفة « عبد الله » على علم بالصلة التي تربط كلا من الخلافة العثمانية وبريطانيا العظمى بمصر وعلى نهج « المهدي » بعث بثلاث رسائل لكل . وكرر مضمون رسالة المهدي للخديوي ، واتهم السلطان عبد الحميد بالإعراض عن دعوته « المهدية » وممالة أعداء الله الذين يسعون لتقويض أركان الإسلام . ودعاه لجهاد الكافرين وإخراجهم عن دار الإسلام . وبعد هزيمة الأنصار بتوشكى في ٣ / ٨ / ١٨٨٩ م على يد الجيش المصري المدعوم بضباط بريطانيين — تضائل حلم الخليفة في نشر الدعوة على أساس عالمي .

وحقيقة الأمر أن الدول الأوربية والتي كانت تتطاحن لتقسيم القارة الأفريقية ، ما كانت تسمح لدولة المهدية بالبقاء ، وأحاطت بها من كل الجهات حتى لاتستطيع حراكا . وبرغم أن الخليفة عبد الله قد نجح في بعض حروبه ضد الحبشة إلا أنه آثر أن يكرس جهده لمواجهة الخطر الوافد من الشمال لإعادة فتح السودان ، وفي معركة « كرري » انتهت الدولة المهدية بفعل التفوق في السلاح الناري .

ومع أن الدعوة لم توفق في بعث الدين على نطاق العالم أجمع فقد نجحت في ترسيخ مفاهيمه بين السودانيين وظلت تعاليمها حية بين كثيرين منهم حتى يومنا هذا . كما أيقظت في السودانيين مايعمق النزعة القومية .

* * *

خاتمة :

إن حركتي السنوسية والمهدية تكونان امتداداً لحركات الإصلاح التي اجتاحت العالم الإسلامي منذ القرن الثامن عشر الميلادي ، وقد تأثرتا بدرجة متفاوتة بالتوجه التوحيدي الذي فجّرتة دعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » . وبرغم اختلاف أسلوب كلّ من الدعوتين فقد جمع بينهما الرباط الصوفي ، والنظرة السلفية التي رمت إلى تجديد الدين وتنقيته من الشوائب . وقد قاومت الحركتان الزحف الاستعماري ، وأوقفتا سيطرته في دائرة نفوذهما إلى حين .

كما وقفنا أمام التيار المسيحي المدعوم من أوروبا .

مع أن الحركتين لم يكتب لهما البقاء طويلاً حيث سقطتا فريسة للهجمة الاستعمارية : ليبيا لإيطاليا ، والسودان ومصر لبريطانيا ، إلا أنهما قد حققتا أهدافهما إلى درجة كبيرة ، وقامتا بعمل فريد في التعبير عن تطلعات المسلمين .

وقد تكشف مقارنة أسلوب الدعوتين وما أنجزتا عن مدى التقارب بينهما كالذي نلاحظه في الآتي :

اعتمدت كلتا الدعوتين على داعية مسلم استفزته أدواء الأمة الإسلامية ، والتدخل الأوربي في شؤون العالم الإسلامي . واعتمد على الكتاب والسنة والنهج التربوي العملي لتحقيق برامجها الإصلاحية .

جمعت الدعوتان بين المنهج الصوفي التربوي والحركة السلفية الجهادية ، وعملت على تغيير الأوضاع القائمة بغية بناء المجتمع الإسلامي السياسي على أساس القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ينتمي زعيما الحركتين إلى أسرتين يرجعان بنسبهما إلى الرسول ﷺ ، وقد تتلمذ كلاهما على بعض شيوخ الطرق الصوفية بيد أن المهدي كان ملتزماً باتباع طريقة واحدة .

كانت السنوسية أقرب إلى الطرق الصوفية في نهجها وتعاملها المتسامح بينما كانت المهدية أكثر تشدداً والتزاماً بالمنهج السلفي وهي أقرب إلى الثورة منها إلى الطريقة .

اتبعت السنوسية نهجاً سليماً في بث تعاليمها ، واتبعت المهدي أسلوب الإقناع بالخطابة والرسائل (المنشورات) المدعمة بالحجج ، فقد كان السيف والجهاد في سبيل الله هو أداة الثورة المهدية وهو في هذا المنهج أقرب إلى الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » .

كلا الحركتين ذات توجه جهادي بيد أن المهدية كانت أكثر حماساً ومضاء وكانت السنوسية أكثر روية ، إذ استغرقت وقتاً كافياً لإعداد (كوادرها) ، وكانت أكثر حذراً في تعاملها

مع القوى الأخرى خاصة مع الدولة العثمانية . أما المهديّة فقد عادت العهد التركي المصري ونادت ببطلان الخلافة العثمانية وعادت بريطانيا .

أبطلت المهديّة العمل بالمذاهب الأربعة ، وألغت الطرق الصوفية ، وتشدد المهدي مع معارضيه ، وكفر من لم يؤمن بدعوته . وكانت السنوسية أكثر تسامحاً .

ووجهت الحركتان بمعارضة بعض العلماء إلا أن معارضتهم للمهديّة كانت أشد من أختها ، خاصة في أمر المهدي المنتظر ، وجلوسه في الحضرة النبوية ، وحديثه عن الإلهام وتكفيره لمن أنكر دعوته .

* * *

ثبت المصادر والمراجع

- ١ — أبو سليم ، محمد إبراهيم ، الحركة الفكرية في المهديّة ، الخرطوم ١٩٧٠ م .
- ٢ — أبو سليم ، محمد إبراهيم ، منشورات المهديّة ، الخرطوم ١٩٦٩ م .
- ٣ — ابن خلدون ، عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ١٩٦٧ م .
- ٤ — جمعة ، محمد كمال ، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية ، الرياض ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .
- ٥ — الجندي ، أنور ، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- ٦ — حقي ، ممدوح ، ليبيا العربية ، كأنك تعيش فيها ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٧ — زيادة ، نقولا ، محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- ٨ — شببكة ، مكّي ، السودان في قرن ، القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٩ — شقير ، نعم ، تاريخ السودان ، القديم والحديث القاهرة ١٩٠٣ م .
- ١٠ — شكري ، محمد فؤاد ، السنوسية دين ودولة ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ١١ — الشيال ، جمال الدين ، محاضرات في الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق ، القاهرة ١٩٥٧ م .
- ١٢ — كرار ، علي صالح ، السنوسية والمهديّة : دراسة فكرية للحركتين ، أطروحة دبلوم ، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٦ م .
- ١٣ — النقر ، عمر ، إعداد ، دراسات في تاريخ المهديّة ، المجلد الأول ، الخرطوم ، ١٩٨٣ م .

* * *

الهوامش

- (١) من مدن الجزائر الكبرى وهي تقع في الغرب الجزائري وهي عاصمة لعمالة (ولاية أو محافظة) .
- (٢) الجندي ز ، أنور ، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ٢٧٥ .
- (٣) المقدمة .
- (٤) نعيم شقير ، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، مصر ١٩٠٣ مجلد ٣ ص ١٢٧ .
- (٥) المصدر السابق ، مجلد ٣ ، ص ١٢٣ .
- (٦) مكى شيكة ، السودان في قرن ، القاهرة ١٩٤٧ ص ١٣٦ ، منشورات تحقيق محمد ابراهيم أبو سليم الخرطوم ، ١٩٦٩ ، ص ٦١ .



مناقشة

الدكتور عبد اللطيف المحمود

لبحث

الحركة المهدية والحركة السنوسية

للدكتور يوسف فضل حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلاة وسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وبعد :
فقد ألجئت إلى هذه الجلسة إلجاء من الأخ « كمال الهلباوي » وغيره ، وأنا شخص قليل
البضاعة ، فماذا عساي أن أقول في حركة لم أدرسها دراسة طويلة ، ولكنه من تيسير الله عز
وجل ، أنه قد سبقني بالمناقشة الأستاذ فهمي هويدي فخفف عني شيئاً ، فجزاه الله خيراً .
والبحث المقدم من الأخ « الدكتور يوسف فضل » يعطينا أربع نتائج ، أولاً : ماشهده
القرنان ، الثاني عشر والثالث عشر الهجريان ، من قيام حركات إسلامية إصلاحية ، تشابهت في
بواعث قيامها ، وأهم هذه البواعث ، ضعف الكيان السياسي في الدولة الإسلامية ، سواء على
نطاق الخلافة ، أو الأقاليم التابعة لها . وتدخل غير المسلمين في شؤون المسلمين الداخلية ،
وإعلان غير المسلمين الحرب العسكرية في بلاد المسلمين ومحاولة النهضة بالبلاد الإسلامية عن
طريق التقليد للأنظمة الغربية خاصة .

النتيجة الثانية : أن هذه الحركات اتفقت على أن النهضة بالأمة الإسلامية لا يمكن أن تقوم
إلا على أسس أهمها : الرجوع إلى المنابع الأولى للإسلام ، الكتاب والسنة ، وتخليص عقائد
المسلمين مما علق بها ، وليس منها ، والذي كان له أثر على سلوكهم وعباداتهم وحركيتهم
في وجوه نشر الدعوة الإسلامية أو وجوه إعداد المسلمين على منهج تربوي ، مستمد من أصالة
الإسلام ، وإحياء الجهاد في سبيل الله بجميع أشكاله : بالجنان واللسان والقلم والسيف .

النتيجة الثالثة : أن هذه الحركات قد اختلفت في أسلوب التعامل مع واقع المسلمين الذي
كان يسوده :

أولاً : الخمول الفكري ، وتقديس المذاهب الفقهية .

ثانياً : انتشار البدع والخرافات .

ثالثاً : انتشار الطرق الصوفية .

رابعاً : ترك جهاد الدول المستعمرة .

فبينما نرى الحركة السنوسية تمزج بين التوحيد والتصوف ، وتستفيد من منهج الطرق التربوية للمتصوفة ، نرى الانكار الشديد وإعلان الحرب على التصوف قاطبة عند الحركة الوهابية والمهدية ، وبينما نرى روح الثورة على الأنظمة السياسية واضحة في الحركة المهدية ، نرى الحركة السنوسية تبتعد عن الصدام مع الأنظمة السياسية ، بل وتحاول ألا تستثيرها مع استعدادها للدفاع عن نفسها وعن بلاد المسلمين ضد أعدائها ، ونرى الحركة الوهابية تتحالف سياسياً مع الدولة الناشئة لتحقيق أهدافها ، وهكذا اختلفت أساليب الدعوة في هذه الحركات باختلاف الأحوال والأزمنة والأمكنة واتبعت كل دعوة الوسيلة المناسبة لها ..

رابعاً : يلاحظ على هذه الحركات :

- ١ — أنها محلية في نشأتها ، عالمية في تطلعاتها وآمالها .
- ٢ — انعزال بعضها عن بعض وعدم التنسيق بينها ، والاتصال الذي نراه بين الحركتين : المهدية والسنوسية يظهر فيه محاولة فرض السيطرة على السنوسية ، وجعلها تابعة للمهدية .
- ٣ — برغم انتهاء النظام الذي كان يسوس هذه الحركات أو يكاد ، إلا أنه مازال لكل منها آثار باقية ولها أتباع كثيرون أو قليلون .

هذه نتائج قراءتي للبحث ، ولكن هذه القراءة أثارت عندي مجموعة من الأسئلة ، والتي يمكن أن تثور عند الباحثين والمفكرين الإسلاميين خاصة ، والحركيين منهم بوجه أخص هذه الأسئلة هي :

أيجوز أن تقوم الحركة المنتسبة إلى الإسلام بتبني مقولات وأفكار وإن كان لها أصل في الفكر الإسلامي لكن الداعي يعلم أنها لا تتحقق فيه ، كادعاء « المهدي » بأنه المهدي المنتظر ؟ مع أنه هو وخلفاؤه قد انتهت حياتهم ولم تملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ! أو الإدعاء أن الرسول ﷺ قد أخبره بأنه المهدي المنتظر ؟ وأنه خلفه بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام .

والسؤال الثاني : أيجوز للحركة أي حركة ، أن تعتبر نفسها الوريثة الوحيدة للفكر الإسلامي قاطبة ؟ بل وحتى لفكر فرقة من فرق المسلمين ؟ أو اتجاه من اتجاهاته فتلغي غيرها أو لا ترى إلا انها المتحدثة والمتحركة باسم الإسلام والعمل الإسلامي فحسب ؟

السؤال الثالث : أيجوز لأي حركة إسلامية أن تبطل العمل بالمذاهب الفقهية الإسلامية التي تستمد أنوارها من ضياء الكتاب والسنة ؟

رابعاً : هل تكفي النتائج التي حققتها أية حركة لصالح المسلمين ، للتجاوز عن أخطائها أو تقديسها ؟

هذه أربع أسئلة ، راودتني وأنا أقرأ هذا البحث . ولست بصدد طلب معرفة الجواب من تلك الحركة ، أو من هذه ، أو الاتفاق مع هذه أو تلك ، بل ما أوردته هو الاستفادة من المفكرين ، والمنظرين والمتحركين من أجل نهضة المسلمين على أساس من الأصالة الفكرية ، والعمل الجماعي في مختلف الدول الإسلامية فضلاً عن الدولة الواحدة ، ولو لم يكن بينهم اتصال سوف تصبح تلك الأسس معمولاً بها فيما بينهم . فلا يتعادون ولا يتنافرون ، بل يصبون جميعاً في بحار الدعوة الإسلامية ومحيطاتها ، خدمة للإسلام وعملاً على نهضة المسلمين حتى يتبوءوا المكانة التي رشحهم الله لها بقوله سبحانه ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (سورة البقرة ، الآية : ١٤٣) صدق الله العظيم ...

